جبهة الإسناد:
دراسة في البُعد الاستراتيجي

إعداد: أحمد علاء الدّين

الفهرس:

المقدّمة: 2
الخلفيّة التاريخيّة: 3
الإطار المنهجي: 3
هدف الدراسة: 4
الفصل الأوّل: الفلسفة العسكرية لجبهة الإسناد – المفهوم والمقوّمات 4
1. تعريف جبهة الإسناد عسكريًا: 4
2. الأسس العقائدية والتنظيمية التي يقوم عليها المفهوم: 5
3. التّمييز بين الإسناد العسكري والإسناد الجغرافي أو السياسي: 5
4. مقوّمات نجاح جبهة الإسناد في طوفان الأقصى: 6
الفصل الثاني: البُعد الاستراتيجي لجبهة الإسناد في إدارة الحرب متعددة السّاحات 6
الفصل الثّالث: التأثيرات العملياتية لجبهة الإسناد على العقيدة القتالية الإسرائيلية 9
الفصل الرابع: تكتيكات الاشتباك الميداني في جبهة الجنوب: الانضباط الناري وحرب الرسائل 11
الفصل الخامس: التوازن بالنار والردع بالإمداد: الجبهة الشمالية كمساحة لوجستية للمعركة 12
الفصل السادس: الانسحاب من المستوطنات الشمالية: الهزيمة الرمزية كأثر من آثار جبهة الإسناد 13
1. الجبهة تُرغم الدولة على الانكفاء 14
2. الأمن الإسرائيلي كأيديولوجيا تنهار أمام تكتيك محسوب 14

3. الهزيمة النفسيّة: 14
4. من إخلاء المستوطنات إلى تهديد البنية الديموغرافية..... 15
الفصل السابع: من جبهة إسناد إلى حرب شاملة: فلسفة الصّدمة والبقاء بعد حرب المباغتة والاغتيالات الكبرى..... 15
1. إخفاق الاغتيال كتكتيك حسم: 16
2. الانهيار البري للعدو: 16
3. فصل الساحات قسراً: استراتيجية العدوّ وأزمة المعنى العسكري للكُمون 17
4. النجاح المرحلي للعدو في فصل الساحات: بين الفشل العملياتي والتقدّم الرمزي.... 17
5. البيئة الحاضنة: المجتمع مؤسسة قتالية طويلة الأمد 18
الفصل الثّامن: الرّد المؤجّل وإدارة الاشتباك في مرحلة ما بعد وقف الحرب الشاملة.... 19
خاتمة الدراسة: 20

المقدّمة:

في صباح 7 أكتوبر 2023، أطلقت المقاومة الفلسطينيّة عملية "طوفان الأقصى"، وهي أعنف ضربة عسكرية موجّهة ضد الاحتلال الإسرائيلي منذ عقود، كسرت منطق الردع، وأربكت المنظومة العسكرية والاستخباراتية الإسرائيلية، وفتحت مرحلةً جديدة من المواجهة بين محور الاستيطان ومحور المتمسكّين بالأرض، ومع حلول اليوم التالي، 8 أكتوبر 2023، أعلن "حزب الله" فتح جبهة عسكرية محدودة في جنوب لبنان، مستهدِفًا مواقع عسكرية إسرائيلية ضمن مناطق مزارع شبعا وتلال كفرشوبا، كموقع رويسات العلم، وقد بدأت من تلك المناطق في القطاع الشّرقي بغطاء قانوني (أرض متنازع عليها) ومن ثم تصاعدت العمليات بشكل تدريجي، لتتحوّل إلى جبهة اشتباك نشطة.

ردّ الفعل المتضامن والخطوة التكتيكية الّتي رآها البعض بأنّها ضيّقة الأفق، هي تطوّر عسكري ملحوظ على طول هذه الجبهة، وأصبح هذا التطوّر تعبيرًا عن فلسفة عسكرية مركّبة، تسعى إلى إعادة صياغة معادلة الاشتباك الإقليمي مع العدو الإسرائيلي، وفرض نموذج من "الردع بالتشتيت"، وإعادة إنتاج التوازن الاستراتيجي الذي تسعى المقاومة إلى تثبيته في المنطقة. لقد شكّل فتح جبهة الإسناد من قبل "محور المقاومة" – لا سيما من الجنوب اللبناني – أحد أبرز التحوّلات في العقيدة القتالية غير المركزية، والتي تقوم على تنسيق الميادين،

وتوسيع نطاق الصّراع، وتخفيف الضّغط عن الجبهة الأمّ، وضرب مراكز القرار والتحكّم من أطراف متعدّدة.

تتضمن الدراسة في فصليها الأخيرين تطوّر الجبهة إلى حرب شاملة، وفلسفة الرّد المؤجّل بعد القرار 1701.

الخلفيّة التاريخيّة:

فكرة الجبهات المتعدّدة ليست جديدة في أدبيات المقاومة، بل تعود جذورها إلى مرحلة ما بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، حين برز حزب الله كقوة مقاومة غير نظامية، كان هناك العديد من جبهات المقاومة الوطنيّة واللّبنانيّة وغيرها تصدّت للعدوّ واستنزفته وكانت شريكة في التحّرير الكبير وقد اعتمدت أسلوب الإنهاك المتدرّج. ومع الانسحاب الإسرائيلي عام 2000، ثم حرب تموز 2006، بدأت تتبلور ملامح عقيدة "الردع المتبادل"، لتنتقل لاحقًا إلى ما يُعرف بـ "تكامل الجبهات"، وهي الفكرة التي رسّخها محور المقاومة على مدار السنوات الماضية، وتجلّت بشكل واضح في الردود المتناغمة بين جبهات غزة وسوريا والعراق واليمن ولبنان.

غير أن جبهة الجنوب في أكتوبر 2023 لم تكن كسابقاتها من الاشتباكات المحسوبة فعلاً، بل كانت المرّة الأولى التي تُفتح فيها جبهة لبنان بقرار استراتيجي واضح ومتصاعد، وبسقف عسكري معلن: دعم معركة غزة، وتثبيت قواعد اشتباك جديدة، وإشغال الاحتلال بجبهة ثانية حقيقيّة، في سياق "المعركة الكبرى" التي بادرت بها المقاومة الفلسطينيّة، فقد شكّلت جبهة الإسناد هذه نموذجًا لفلسفة عسكرية جديدة تتجاوز الجغرافيا، وتعيد تعريف مفهومي "التكافؤ" و"الدعم العسكري" في الحروب غير المتكافئة.(كنت قد تحدّثت عنها تفصيلاً في دراسة مفهوم الرّدع في الحرب غير المتكافئة).

الإطار المنهجي:

اعتمدت هذه الدراسة على التحليل والاستقراء، من خلال قراءة وقائع الميدان، والخطاب العسكري للمقاومة، وتطوّر العمليات على الأرض، إضافة إلى رصد التصريحات الرسمية والتقديرات الإسرائيلية حول الجبهة الشمالية. كما استخدمت المنهج المقارن لتبيان الفارق بين فلسفة الجبهة التكتيكية (المحدودة) والجبهة الاستراتيجية (المفتوحة على احتمالات التصعيد)، وبين أنماط الرّدع القديمة والجديدة.

استندت في الدراسة إلى مصادر متنوعة، منها التقارير العسكرية، البيانات الرسمية، التحليلات الأمنية الصهيونية، بالإضافة إلى قراءات سابقة في العقيدة القتالية لحزب الله، كما

تسعى الدراسة إلى استجلاء العمق الفلسفي في القرار العسكري بفتح الجبهة، وليس فقط تفسيره بوصفه قرارًا ظرفيًا أو ردًّا شعبيًا متعاطفًا، ولست بصدد تبيان الخلفيّة الدّينيّة الأيديولوجيّة لتعليل وتبرير قرار فتح الجبهة (نصرة المستضعفين، وجوب شرعي في رفع الظّلم عن المظلومين...) فهذا قد تناوله الكثير من روّاد المنابر والخطباء وأهل العلم على منصاتهم، وبات واضحاً عند العوام من النّاس والنّخب.

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل جبهة الإسناد التي افتتحها حزب الله من منظور فلسفي عسكري، باعتبارها أكثر من مجرد إسناد ناري لغزة، بل بوصفها تكتيكًا استراتيجيًا يندرج ضمن مفهوم الحرب غير المتناظرة متعددة الجبهات، وتندرج في إطار بناء "الردع الديناميكي" الذي لا يعتمد على مراكمة السلاح فقط، بل على توقيت استخدامه وتوزيع جبهات الضغط على العدو.

كما تسعى الدراسة إلى تفكيك الأسس النظرية لهذه الفلسفة العسكرية، وتقييم أثرها على الصراع الشامل، وعلى العقيدة القتالية الإسرائيلية، ومستقبل الاشتباك الإقليمي، بما يمكّن الباحثين من فهم التحوّلات الجارية في شكل الحروب المستقبلية التي تقودها قوى المقاومة، ولابدّ من القول بأنّ تقييم المعارك بعد خوضها أمرٌ ضروريّ بل واجب لتفادي الأخطاء وتصحيح المسار والتّطوير المستدام، فيحتاج الباحث إلى الجرأة في طرح أفكاره، ولا ننسى بأنّ رؤية المعركة من منظار العدوّ أمرٌ بالغ الأهميّة بحيث ترى نتائج معركتك وأثرها في أوساطه ومستوياته كافّة، فيسهل التّقييم.

أسأل الله تعالى أن تكون الدّراسة رافعة للكثير من الشّبهات الّتي وردت على أصل فتح الجبهة وفوائدها، ونكون فاعلين في ميدان جهاد التّبيين إن شاء الله تعالى، والله من وراء القصد.

الفصل الأوّل: الفلسفة العسكرية لجبهة الإسناد – المفهوم والمقوّمات

1. تعريف جبهة الإسناد عسكريًا:

يُقصد بـ "جبهة الإسناد" في السّياق العسكري العام، افتعال اقتتال هجومي على جغرافيا مغايرة لجغرافيّة الجبهة الأساسيّة، بغرض تقديم الدعم القتالي أو التشتيتي أو الاستراتيجي للجبهة الرئيسية المشتعلة في ساحة مختلفة. ويأخذ هذا الإسناد أشكالًا متعددة: نارية، لوجستية، إلكترونية، أو فيزيائية ميدانية. أما في السياق الخاص للمقاومة، فإن جبهة الإسناد تُوظّف كمكوّن تكتيكي/استراتيجي هجومي، يتسم بطابع تفاعلي مع الحدث، ويهدف إلى تحقيق التوازن أو فرض المعادلة أو استنزاف العدو وتوزيع قدراته على أكثر من جبهة.

في الحالة التي نحن بصددها، تمثّلت جبهة الإسناد بفتح حزب الله لجبهة الجنوب في 8 أكتوبر 2023، أي بعد 24 ساعة فقط من انطلاق عملية "طوفان الأقصى" التي قادتها كتائب القسام

ـ حماس وفصائل المقاومة الفلسطينية. ومنذ ذلك التوقيت، لم تعد جبهة الجنوب فضاءً دفاعيًا تقليديًا، بل تحوّلت إلى جبهة إسنادية هجومية خاضعة لمعادلات ضبط النّار والتّصعيد التدريجي المدروس، ضمن فلسفة واضحة المعالم.

2. الأسس العقائدية والتنظيمية التي يقوم عليها المفهوم:

يُبنى مفهوم "جبهة الإسناد" في العقيدة القتاليّة لحزب الله على مستويين متكاملين:

- **أولًا – البعد العقائدي**: يستند إلى مبدأ "وحدة الساحات" الذي رسّخه حزب الله ضمن أدبياته منذ ما بعد حرب تموز 2006، ثم تجلّى لاحقًا في سلسلة مناصراته الإعلاميّة لغزة خلال اعتداءات 2008، 2012، 2014، 2021، و2022، وذلك بتجيير المنبر الدّيني والإعلامي بتبيان إنجازات المقاومة، وإحياء القضيّة الفلسطينيّة كجزء لا يتجزّأ من المنظومة العقائديّة، وتكمن الفكرة الجوهرية في أن المعركة مع العدو الصهيوني لم تعد محصورة جغرافيًا أو تنظيمياً، بل هي شاملة في بعدها المقاوم، عابرة للحدود، ومتداخلة في تموضعاتها. بذلك، تصبح كل ساحة جزءًا من بنية الرد والدفاع عن الأخرى.
- **ثانيًا – البعد التنظيمي**: يتيح الهيكل العسكري والعملياتي لحزب الله المنتشر على طول الجغرافيا الحدوديّة إمكانية تفعيل هكذا نوع من الجبهات وإدارتها دون الخلل بالجبهة الدّاخلية، فحزب الله يحتفظ بمرونة عالية في توزيع القوة النارية وفقاً للضغط السياسي والاستراتيجي، ما يسمح له بفتح جبهة إسناد بأقل قدر من المخاطرة العسكرية أو السياسية الداخلية.

3. التّمييز بين الإسناد العسكري والإسناد الجغرافي أو السياسي:

يجب التمييز بدقة بين الإسناد العسكري كتوظيف فعّال لقوة نارية أو ميدانية بهدف التأثير على مجريات معركة ما، وبين الإسناد السياسي أو الإعلامي الذي يتجلى في البيانات والمواقف والتعاطف. جبهة الإسناد التي افتتحها حزب الله لم تكن من باب "التضامن"، بل اندرجت ضمن مقاربة عسكرية عملية، تضع يدها في قلب المنظومة العسكرية الصهيونية وتعيد توجيه مواردها وتركيزها شمالًا.

هذا التمييز ضروري لفهم أن ما جرى هو خطوة محسوبة لتغيير ميزان القوى وتشتيت التركيز الإسرائيلي، ومنع تنفيذ خطط الاجتياح البري الواسع ضد قطاع غزة على أقلّ التّقادير.

ملاحظة: أهداف جبهة الإسناد كانت ديناميكية متغيّرة بحسب الظّروف الميدانيّة، فبعد إعلان العدوّ في نفس اليوم أي في 7 أكتوبر انطلاق معركة السّيوف الحديديّة زادت حدّة الجبهة الشّماليّة للضّغط على القيادة العسكريّة بزجّ الألوية النّظامية على طول الجبهة الشّمالية، ورغم ذلك تقدّم العدوّ في القطاع ووصل إلى رفح، رغم تكبدّه خسائر على صعيد ألوية نخبويّة.

4. مقوّمات نجاح جبهة الإسناد في طوفان الأقصى:

يمكن تلخيص المقوّمات الّتي أسهمت في تحويل جبهة الإسناد إلى عنصر استراتيجي فعّال كما يلي:

- **المبادأة بالتوقيت:** افتُتحت الجبهة بعد أقل من 24 ساعة، ما يعني أنها نُفّذت ضمن حسابات زمنية متوافقة مع دينامية المعركة في غزة، وليس كفعل رد فعل.
- **الاحترافية في التصعيد التدريجي**: جرى ضبط وتيرة الاشتباك بطريقة تمنع التصعيد الكامل مع الكيان، مع الحفاظ على فاعلية الاشتباك وتهديد عمق الجبهة الشمالية.
- **اتساع نطاق الأهداف:** لم تقتصر الضربات على المواقع الحدودية، بل طالت البنية التحتية العسكرية للعدو، ما تطلّب من الجيش الصهيوني إعادة نشر وحدات كبيرة شمالاً.
- **الاكتفاء الذاتي في الميدان:** أظهرت العمليات أن حزب الله قادر على إدارة جبهة مستقلة عن الدعم الخارجي، مستندًا إلى بنية ميدانية مكتفية لوجستيًا واستخباريًا.
- **الانضباط الاتصالي والإعلامي:** بقيت رسائل الجبهة منضبطة، لا تخرج عن إطار المفهوم الإسنادي، وهو ما ساعد بدايةً في منع الانجرار إلى حرب شاملة.

الفصل الثاني: البُعد الاستراتيجي لجبهة الإسناد في إدارة الحرب متعددة السّاحات

شكّلت جبهة الإسناد لحظةً فاصلة في التحوّل نحو نمط جديد من أنماط المواجهة مع العدو الإسرائيلي، ألا وهو نمط الحرب متعددة الساحات، لقد سمعنا هذا المصطلح كثيراً من السّيد الشّهيد حسن نصر الله (رض) في الكثير من خطاباته في فترة الإسناد، فقد بدا واضحًا أن محور المقاومة، وعلى رأسه حزب الله، لم يَعُدْ يتعاطى مع الحرب كحدث موضعي، محدود بالجغرافيا أو محكوم بمنطق الرد المباشر، بل أصبح يُدير الحرب كـ "نظام ميداني" مترابط وموزّع، يتحرك بوحدة هدف وتكامل وظائف، دون حاجة إلى مركزية تنظيمية صلبة.

ضمن هذا السياق، لم تأتِ جبهة الإسناد كرد فعل عاطفي أو تضامني على أحداث غزة، بل جاءت بوصفها إجراءً عسكريًا محسوبًا وذا حمولة استراتيجية عميقة، إذ انطلقت من فهم دقيق لطبيعة المواجهة المستجدة التي دشّنها طوفان الأقصى، بوصفها لحظة فاصلة تهدّد التوازنات الأمنية الإسرائيلية الراسخة، وتفتح المجال أمام "الاشتباك المفتوح" على مستوى الإقليم.

لقد مثّل هذا الاشتباك المتعدد الساحات تحديًا مباشرًا للعقيدة الأمنية الإسرائيلية التي بُنيت، منذ عقود، على مبدأ "تفكيك الجبهات" و"عزل الساحات" عن بعضها البعض، حتى لا تُضطر إسرائيل إلى خوض حرب على أكثر من جبهة في آن واحد. غير أنّ ما حصل بعد 8 أكتوبر، أظهر أنّ تلك العقيدة قد أصبحت موضع اختبار خطير، إذ اضطُرت المؤسسة العسكرية الصهيونية إلى إعادة توزيع قواتها، واستدعاء عدد كبير من قوات الاحتياط لتأمين الجبهة الشمالية، وهو ما انعكس بشكل مباشر على اندفاعتها البرية نحو قطاع غزة، وسبّب ارتباكًا في إدارة الأولويات العملياتية.

لم تكن جبهة الجنوب اللبناني جبهة انفجارية واسعة بالمعنى الكلاسيكي، لكنّها نجحت في تحقيق ما هو أخطر من ذلك: تفكيك مركزية القرار العملياتي الإسرائيلي، وسحب زمام المبادرة من يد العدو. إذ باتت تل أبيب أمام معادلة جديدة لم تختبرها منذ عام 2006: معادلة تُربك توقيتاتها، وتشتّت تركيزها، وتجعل قرار التصعيد محفوفًا بثمن استراتيجي كبير، فهي لم تعد قادرة على التّعامل مع غزّة على أنها ميدان منفصل يمكن عزله وتطويقه، بل وجدت نفسها مجبرة على فتح عينها على الحدود الشمالية، ومراقبة نشاط حزب الله الذي أدار الميدان بذكاء استثنائي، حافظ فيه على ديناميكية الردع دون أن ينزلق إلى حرب شاملة بدايةً يعرّض فيها قوّاته للنّار على الحدود الجغرافيّة من النّاقورة حتّى شبعا، وفي الوقت نفسه استطاع توسيع دائرة الضغط العسكري على إسرائيل، وتقييد قدرتها على المناورة.

أكثر من ذلك، يمكن القول إن حزب الله نجح من خلال جبهة الإسناد في فرض "إيقاع تصعيدي متدرّج" تحكمه معادلة واضحة: كلما ازداد عدوان العدو على غزة، ارتفع مستوى الاشتباك على الحدود اللبنانية. وهو ما أعاد تشكيل العلاقة بين الجبهتين على قاعدة "الاشتباك المترابط"، لا فقط من حيث التأثير الميداني، بل أيضًا على مستوى البُعد المعنوي والمعادلات السياسية. وقد جعل هذا التلازم من الجبهة الشمالية عاملًا ضاغطًا دائمًا على صانع القرار الإسرائيلي، وأفقده القدرة على التعامل مع المعركة في غزة بوصفها حدثًا داخليًا محدود التأثير الجيوسياسي.

ولعلّ أحد أهم الأبعاد الاستراتيجية التي اتّسمت بها هذه الجبهة، هو قدرتها على تشتيت الجهد الاستخباري الإسرائيلي. فبينما كانت الأجهزة الأمنية تحاول ملاحقة تفاصيل العمليات المعقدة في غزة، وجدت نفسها مضطرة لتكريس جزء كبير من منظوماتها الرصدية والبشرية لتتبّع تحركات حزب الله، والتنبؤ بنواياه، وتقدير إمكانيات تصعيده. وهذا النوع من التشتيت – الذي لا يُقاس فقط بالكمّ وإنما بالكيف – يجعل إسرائيل تعمل تحت ضغط دائم، ويُفقدها الكثير من ميزاتها التفوقية، كسرعة الاستجابة، وحُسن التقدير، ومفاجأة الخصم.

إن جبهة الإسناد بهذا المعنى، لم تكن جبهة ثانوية أو هامشية في المشهد، بل مثّلت حجر زاوية في بناء "معمار استراتيجي مقاوم"، قائم على توزيع الأعباء القتالية، وتقاسم المسؤوليات

الميدانية، والاشتباك المتزامن وفق جدول سياسي وميداني يملكه المحور، لا العدو. وهي بهذا الدور، لا تُحاكي النموذج العسكري التقليدي الذي يُقاس بعدد الطلعات، أو حجم الدمار، أو كثافة النيران، بل تحاكي نموذجًا جديدًا من الحروب الهجينة التي تمتزج فيها الرسائل العملياتية بالتكتيك المعنوي والضغط السيكولوجي طويل النفس.

لذلك يمكن القول بأنّ جبهة الإسناد هي جزء من نظرية الحرب الحديثة كما يراها حزب الله ومحور المقاومة؛ حرب تُخاض بالعقل قبل السلاح، وبإدارة التوقيت قبل إدارة النار، وبالتحكّم في الاشتباك قبل الانجرار إليه.

نعم رغم ما ذكرته أعلاه من أهداف استراتيجيّة عميقة لجبهة الإسناد، لم تستطع الجبهة منع الاجتياح البري والغزو المهول للقطاع، لكن أضعفت سرعة تنفيذ المهمّة بالنّسبة للجيش الإسرائيلي، فمحور الضّغط هنا كان توزيع القوّة الفيزيائيّة بين جبهتين، الأولى مستعرة يستدعي المنطق العسكري إخمادها، والثّانية إلهائيّة يستدعي المنطق أيضاً تحييدها، ولربما قلت لي بأنّ فصل جبهة لبنان عن غزّة قد تمّ في نهاية المطاف، إلّا أن الطّريقة الاستنزافية للعتاد والعديد الّتي كلّفت العدوّ وقتاً لم يعتد عليه في منظومة عقيدته القتاليّة (الحسم السّريع) ممّا استدعاه إلى مواجهة جبهة داخليّة لا تقلّ أهميّة عن الجبهات المحاذية والإقليميّة، لتعود إلى الواجهة، فكرة ومفهوم ترسّخ في وعي ومرتكز المجتمع الصّهيوني، بأنّ الجيش لا يستطيع القتال على جبهات متعدّدة دون تضحيات، وبأنّ الحسم الّذي هو غاية الهيئة السّياسيّة بدفع ما يسمّى تهديد وخطر للعمق الإستراتيجي لم يتحقّق بعد، فها هو حزب الله لا زال موجوداً، وها هي حماس رغم ضعف منظومتها العسكريّة لا زالت تفاوض، فكيف في تفكير العدوّ تكون ثمرة فصل السّاحات ونتائجها؟؟؟

وكيف للعدوّ أن يتغنى بإضعاف كلا الجبهتين وهو لا زال يعمل سياسيّاً على نزع سلاح حزب الله الّذي من المفترض أنّه قضى عليه؟؟

وكيف له بالتّفرّد بغزّة دون جبهة لبنان بأن لا يحرّر أسراه دون تفاوض؟؟؟

ألا يدلّ ذلك على خلل في العقيدة القتالية الحديثة الّتي ما زالت تحت التّجربة والتّقييم؟

أقول هنا عندما أحاكي شكل المعركة الّتي من المفترض العدوّ قد فصل السّاحات فيها بأن يذهب لتحقيق الأهداف الإستراتيجيّة الموضوعة من قبل الهيئة السّياسيّة، لكن حتّى تاريخ هذه الدّراسة لم ينجح ولن ينجح بسبب اضطراب الجبهة الدّاخليّة الّتي تعتبر خطيرة في المرحلة الحاليّة، وأخيراً عند اتخاذ حزب الله القرار في الرّد على الاعتداءات الصهيّونيّة، ما هو جواب الهيئة السّياسيّة للمجتمع الصهيوني الّذي أنهكته الحرب طويلة الأمد غير المعتاد عليها؟ وكيف سيبرّر عدم حسم الصّراع في الجولة الأولى في أولي البأس؟؟

كلّها أسئلة تتضمّن أجوبتها بحدّ ذاتها لا تحتاج إلى فلاسفة سياسة للإجابة عنها، هنا وعلى صعيدي الشّخصيّ، أرى وأتغنّى بجدوائيّة حرب الإسناد الّتي تعلّم حزب الله فيها فنّاً إداريّاً لمعركة طويلة الأمد تحتاج إلى إستراتيجيّة سيكولوجيّة ألا وهي صمود النّفس في قبال خطر الإزالة والإلغاء.

الفصل الثّالث: التأثيرات العملياتية لجبهة الإسناد على العقيدة القتالية الإسرائيلية

لقد ذكرت مراراً وتكراراً مفهوم العقيدة القتاليّة لجيش العدوّ في كتاب (معركة طوفان الأقصى) وفي كتاب (تطوّر التّكنولوجيا العسكرية الإسرائيليّة 2006-2024) ، وأعيد وأكرّر للفائدة بأن إسرائيل منذ تأسيسها، بَنت عقيدتها القتالية على مبدأ الحسم السريع والحرب الخاطفة، مستندةً إلى تفوّقها الجوي، وتقدّمها التكنولوجي، وسرعة تعبئتها الاحتياطية، وامتلاكها زمام المبادرة، وهي عقيدة تستند إلى إيمان عميق بأن بقاء إسرائيل مشروط بقدرتها على نقل الحرب إلى أرض الخصم، وإنهائها بأسرع وقت ممكن، دون الانجرار إلى استنزاف طويل الأمد يهدد تماسك جبهتها الداخلية، غير أن جبهة الإسناد التي فتحها حزب الله، أطلقت مسارًا جديدًا أربك أُسس هذه العقيدة وجعلها موضع اختبار مباشر.

ففي المنطق العسكري الإسرائيلي، تُعدّ الجبهة الشمالية "الأكثر حساسية" و"الأعلى تكلفة" لأي انزلاق تصعيدي، نظرًا إلى ما راكمه حزب الله من قدرات نارية دقيقة وبعيدة المدى، ونقاط تفوّق ميدانية، وخبرات تكتيكية استثنائية بُنيت على امتداد عقدين من التماس المباشر. ولذلك، فإن فتح هذه الجبهة – ولو بصورة متدرجة – عنى لإسرائيل فتح ثغرة استراتيجية في خاصرتها، وثقبًا عميقًا في جدار ردعها، لا سيما وأنّ الحزب حرص على الإمساك بإيقاع الاشتباك دون السماح بانفلاته، الأمر الذي أبقى تل أبيب في حالة "استعداد مستنزِف"، دون أن تتمكّن من تبرير شنّ حرب شاملة.

تجلّت أولى مظاهر التأثير العملياتي في إعادة الانتشار الكبير الذي نفّذته القيادة الشمالية في جيش الاحتلال. فمع بدء جبهة الإسناد، اضطُرّ الجيش الإسرائيلي إلى تعزيز الوحدات النظامية على الحدود الشمالية، واستدعاء عشرات آلاف الجنود من الاحتياط، ونقل بطاريات القبة الحديدية و"مقلاع داوود" من جبهات أخرى إلى الشمال، في مشهد أعاد للأذهان أيام حرب تموز 2006، هذا التغيير لم يكن إجراءً روتينيًا، بل كان اضطرارًا عملياتيًا نابعًا من فقدان الثقة بتقديرات الاستقرار، وهو ما تناقض مع المبادئ القتالية الإسرائيلية التي تقوم على تجزئة المعارك وتحقيق التفوق في الجبهة المركزية، لا التوزيع القسري للقوة.

وقد أدّى هذا التحوّل إلى أثرين عمليتين بالغين على العقيدة الإسرائيلية: الأول، شلل نسبي في المبادرة الهجومية على جبهة غزة، حيث بات على إسرائيل أن توازن بين الضرورات التكتيكية في الجنوب والاحتمالات التصعيدية في الشمال، مما أبطأ من وتيرة العمليات البرية، وزاد من حجم التردّد في اتخاذ قرارات نوعية. أما الأثر الثاني، فكان تعطيل منظومة الردع نفسها، إذ أن استمرار حزب الله في تنفيذ عمليات محدودة ولكن محسوبة – كاستهداف مواقع عسكرية حدودية، أو إسقاط طائرات مسيّرة – جعل "المعادلة الردعية" أكثر هشاشة، وعرض العدو لنمط جديد من الاستنزاف الطويل والمركّب.

أبعد من ذلك، أعادت جبهة الإسناد رسم حدود ما يمكن تسميته بـ "هندسة التهديد" داخل العقل الإسرائيلي. الأمر الذي ضرب أحد أعمدة العقيدة القتالية: السيطرة الكاملة على التوقيت والمكان، وأصبحت تل أبيب في موقع رد الفعل على "اختيار الخصم" لنقطة الاشتباك، وهو ما أفقدها ميزة المبادأة، وأربك منظومتها الاستخبارية التي لطالما اعتدّت بقدرتها على استشراف النوايا وتحديد حدود التصعيد.

كما مثّلت الجبهة الشمالية "ملفًا مفتوحًا" لا يمكن تجاهله في حسابات الرد، الأمر الذي فرض على القادة العسكريين الإسرائيليين إعادة النظر في خطط القتال متعددة الجبهات، وبيّن حدود القدرة على "حصر المعركة"، التي لطالما رُوّج لها كأحد أعمدة النجاح العملياتي، بل أن الطابع المرن والتدريجي الذي أدار به حزب الله الجبهة، كشف ثغرات عميقة في القدرة الإسرائيلية على التعامل مع هكذا نوع من الجبهات.

وقد اعترف عدد من الضباط السابقين والمحللين العسكريين في إسرائيل – كما أظهرت التقارير خلال الأسابيع التالية للهجوم – بأنّ فتح جبهة الإسناد أربك العقل العسكري الإسرائيلي، وأعاد تفعيل أشباح 2006، لا سيما في ضوء تقديرات تقول بأنّ الحزب يمتلك القدرة على إطلاق آلاف الصواريخ الدقيقة يوميًا، في حال تطوّر الاشتباك. وهو ما جعل التفكير بأي مبادرة هجومية في غزة محفوفًا بعامل الردع المتبادل، والمجهول الاستراتيجي القادم من الشمال.

بناءً على ذلك، يمكن القول إن جبهة الإسناد أربكت التوزيع العملياتي للقوات الإسرائيلية، وأعادت تشكيل عقيدتها القتالية ذاتها، عبر فرض جملة من التحوّلات الجوهرية في فلسفة إدارة الحرب، وحدود القدرة على تفكيك الساحات، وتوقيت الحسم، ومعنى الانتصار. وبذلك، تحوّلت من كونها جبهة إسناد إلى كونها جبهة تغيير في طبيعة الصراع نفسه، ومحورًا لفهم جديد للصدام مع الكيان المؤقت، حيث يُدار الاشتباك بطريقة مدروسة، تكسر أنماط التوقّع، وتفرض واقعًا استراتيجيًا جديدًا على المنطقة بأسرها.

الفصل الرابع: تكتيكات الاشتباك الميداني في جبهة الجنوب: الانضباط الناري وحرب الرسائل

منذ اللحظة الأولى لفتح جبهة الإسناد، اتّبع حزب الله نمطًا قتاليًا اتّسم بدرجة عالية من الانضباط العملياتي، والتوظيف المدروس للأدوات العسكرية. فقد خاض الحزب هذه الجبهة لا بوصفها ساحة مواجهة مفتوحة، بل كحيّز اشتباكي محسوب بدقّة، توظَّف فيه القوة ضمن استراتيجية الرسائل المركّبة، وتُستخدم فيه النيران بصفاتها الرمزية والتكتيكية لا الكمية. هذا النمط القتالي لا يُقرأ فقط من زاوية الفعل العسكري، بل من خلال هندسة اشتباك تراعي توازنات ميدانية وسياسية دقيقة، وتعيد تعريف مفاهيم كالردع، التصعيد، والسيطرة العملياتية.

تمثّلت أبرز ملامح هذا الاشتباك في ما يمكن تسميته بـ "الانضباط الناري"، حيث حافظ الحزب على استخدام مدروس ومحدود للقوة النارية، بما يمنع الانزلاق نحو حرب شاملة لا يريد أن يبدأها، لكنه في الوقت نفسه يُبقي الجبهة في حالة غليان موضعي، واستنزاف عالٍ الوتيرة. فعمليات استهداف مواقع الرصد الإسرائيلية، ومراكز القيادة الحدودية، ووحدات المراقبة، جرت وفق نمط يومي تقريبي، يراوح بين ضربات دقيقة بطائرات مسيّرة انتحارية، أو صواريخ موجهة مضادة للدروع، أو قذائف مدفعية قصيرة المدى، وكلها تُنفذ بمرونة تكتيكية تتجنب استهداف المدنيين الإسرائيليين عمدًا، مما يُفقد العدو مبرر الرد الشامل.

هذا الشكل من "ضبط النيران" لا يُعدّ تقييدًا، بل هو تكتيك واعٍ يتقاطع مع نظرية "اقتصاد القوة" في الفكر العسكري، حيث تُوظَّف الوسائل لتحقيق الأهداف الاستراتيجية دون استهلاك الموارد أو فتح الجبهات دفعة واحدة. وقد ظهر هذا بوضوح في تركيز الحزب على بنك أهداف عسكري بحت، يهدف إلى تفكيك شبكات المراقبة الحدودية، وإخراج المواقع المتقدمة من الخدمة، بما يُفرغ الشريط الحدودي من المكوّن العسكري الإسرائيلي، ويُحوله إلى منطقة فراغ عملياتي يتحرك فيها الحزب بحرية نسبية.

كما برزت حرب الرسائل بوصفها مكوّنًا تكتيكيًا ملازمًا لكل عملية. فكل ضربة كانت تحمل مضمونًا سياسيًا أو ميدانيًا موجّهًا، يُقرأ من خلال التوقيت والمكان والأداة. فعلى سبيل المثال في البداية، استهداف مواقع في مزارع شبعا تزامنًا مع أحداث تصعيدية في غزة كان يعني أن الجبهة الشمالية ليست ساكنة بل "متأهبة للاتساع". واستهداف آليات في مستوطنات حدودية جاء كردّ مباشر على المجازر في القطاع. بل إن بعض الضربات – كما في حالة إسقاط طائرات مسيّرة إسرائيلية – كانت تحمل رسائل تكنولوجية وتحديًا مباشرًا للهيمنة الجوية الإسرائيلية.

هذا النمط من الاشتباك يُعيد تعريف العلاقة بين الميدان والسياسة. فالجبهة ليست مجرد امتداد لساحة المعركة في غزة، بل أصبحت فضاءً مستقلًا تدار فيه المواجهة كعملية قائمة بذاتها، تملك ديناميكيتها ووسائلها وخطابها. وفي هذا الإطار، مارس حزب الله ما يشبه "الاستعراض

المحسوب للقوة"، مُظهرًا قدرة كبيرة على ضرب أي نقطة على الحدود، مع الاحتفاظ بحق التصعيد النوعي في حال تغيّر الإيقاع، وهو ما جعل إسرائيل تعيش تحت معادلة الشك الدائم: هل هذه الضربة هي نهاية الجولة أم بداية الانفجار؟

كما أن التكتيك الميداني حافظ على عنصر "المرونة الانتشارية"، حيث امتنع الحزب عن تثبيت نقاط اشتباك ثابتة، واعتمد على مجموعات صغيرة سهلة الحركة، تتسلل إلى مناطق الاشتباك ثم تنسحب سريعًا، مع استخدام مزيج من الأسلحة الذكية والدقيقة، دون الاعتماد على كثافة نارية عمياء. وقد كشف هذا النمط هشاشة الجدار التقني الإسرائيلي، وأظهر قدرة الحزب على اختراق الطوق التكنولوجي الذي تبنيه إسرائيل حول حدودها، سواء من خلال ضرب الأبراج والمجسّات، أو عبر استهدافات مباشرة تُظهر إلمامًا استخباراتيًا عاليًا ببنية الخصم.

كل ذلك يضع الاشتباك في الجنوب ضمن إطار جديد من التفكير العسكري: حيث لا تسعى المقاومة إلى الحسم بل إلى "نحت التوازن" بالتراكم، وتُحوّل كل جولة نارية إلى فرصة لبناء معادلة جديدة. إنها حرب "تقدير وتوقيت" أكثر منها حرب "قصف وتدمير"، تقرأ إيقاع المنطقة، وتستخدم الميدان كبطاقة سياسية، وتعتمد على الرشاقة التكتيكية لا الكثافة النارية.

إن فلسفة "الانضباط الناري" وحرب الرسائل مثّلا تطورًا في المدرسة العسكرية للمقاومة، يُعبّر عن تحول في إدارة الصراع من المواجهة الكاملة إلى الاشتباك التفاعلي، ومن حرب المواقع إلى حرب المعاني، ومن الرد الفوري إلى الضرب المدروس. وهو ما يجعل من جبهة الإسناد دعمًا عسكريًا لغزة، بل مدرسة قائمة بذاتها في كيفية إدارة التماس مع عدو متفوّق تقنيًا، دون الوقوع في فخ الاستنزاف غير المحسوب أو الحرب الشاملة كمبادر لها.

الفصل الخامس: التوازن بالنار والردع بالإمداد: الجبهة الشمالية كمساحة لوجستية للمعركة

إنّ أحد أبرز التحولات التي فرضتها جبهة الإسناد، هو إعادة تعريف "الجغرافيا العسكرية" بوصفها ميدانًا للقتال أو منصّة لإطلاق النار، وبوصفها أيضًا رافعة لوجستية استراتيجية للمعركة المفتوحة في غزة، ومصدراً لإعادة إنتاج التوازن من خارج مسرح العمليات الأصلي. فالحرب الحديثة، كما أدركها حزب الله، لا تُدار فقط من موقع الاشتباك المباشر، بل من كامل نطاق الجغرافيا القتالية لمحور المقاومة، ما يجعل من الجبهة الشمالية كيانًا فاعلًا في معادلة الإمداد، والدعم، والتشتيت، وإعادة توزيع الضغط العملياتي.

في هذا السياق، ينبغي تحليل جبهة الإسناد من منظور قدراتها، ومن جهة أنّها شبكة من البُنى التحتية القتالية التي تشكّل امتدادًا عضويًا للمعركة على جبهة غزة. فعلى سبيل المثال، فإن

الفعل العسكري لحزب الله في الجنوب لم يكن عشوائيًا أو اندفاعيًا، بل محكومًا بمنهجية عسكرية تستند إلى ثلاثة أبعاد:

1. إشغال العدو وتثبيت قواته على طول الحدود الشمالية، مما يفرض عليه توزيعًا غير فعّال لقواته، ويمنعه من نقل وحدات نخبوية إلى الجنوب.
2. إضعاف قدرة القيادة المركزية للجيش الإسرائيلي على إدارة المعركة في جبهتين متزامنتين، الأمر الذي يؤدي إلى تآكل الأداء القيادي والاستراتيجي في عمق المعركة.
3. فتح مسارات إمداد نفسي ومعنوي وسياسي للمقاومة في غزة، عبر فرض مشهد يومي يُظهر أن المقاومة ليست وحدها، وأن نار المواجهة ليست محصورة داخل القطاع.

في بعده الميداني، لعب الجنوب دور "المسرح الجانبي ذي الأثر المركزي"، وهو توصيف استراتيجي يدل على قدرة الجبهة على التأثير دون الانخراط الكامل. فكل ضربة صاروخية، وكل استهداف لموقع عسكري أو تحصين حدودي، لم يكن غايته فقط الإيلام المباشر، بل إرباك منظومة القرار الإسرائيلي، وإرغامه على الاستعداد الدائم لاحتمال انفجار الجبهة، ما يبدد التركيز العملياتي على غزة.

يُضاف إلى ذلك أن جبهة الاسناد لم تكن فقط جبهة قصف وردع، بل كانت -من وجهة عسكرية استراتيجية- حزامًا خلفيًا محميًا لمحور المقاومة. إذ مثّلت أيضًا مجالًا آمنًا لتبادل المعلومات، والتنسيق الاستخباري، وضبط إيقاع المعركة بين مختلف أطراف المحور. وهو ما يُعطي هذه الجبهة بعدًا تكتيكيًا واستراتيجيًا مزدوجًا، حيث تُقاتل وتُخطّط وتُنسّق في آنٍ معًا.

في المحصلة، لا يمكن فهم فعل المقاومة في غزة من دون إدراك القيمة العسكرية والتكتيكية واللوجستية للجبهة الشمالية فعلاً، فهذه الجبهة، بفعلها المحسوب، وتهديدها المدروس، وشبكتها الميدانية الواسعة، لم تفتح فقط جبهة قتال، بل دعّمت العمق الفلسطيني بشبكة دفاع معنوي وعسكري وإعلامي وسياسي. وهكذا تحوّلت جبهة الإسناد من مجرد ساحة دعم إلى بنية ردعية مستقلة، ورافعة إسنادية شاملة، ومصدر من مصادر القوة المركّبة للمقاومة في زمن الاشتباك الممتد.

الفصل السادس: الانسحاب من المستوطنات الشمالية: الهزيمة الرمزية كأثر من آثار جبهة الإسناد

شكّل الانسحاب الجماعي من الشمال من عشرات مستوطنات الجليل الأعلى، واحدًا من أكثر التداعيات الرمزية تأثيرًا في ميزان الحرب النفسية والاستراتيجية، وأحد أعمق مؤشرات التحول الذي فرضته جبهة الإسناد على مفهوم الأمن الإسرائيلي ذاته.

لقد ظهر بوضوح أن جبهة الإسناد، نجحت في تجريد المستوطن الإسرائيلي من يقينه الأمني، وفرضت عليه نوعًا جديدًا من النزوح القسري، نزوح لا تدفعه الخسائر المادية المباشرة، بل الخوف من المجهول والانكشاف الميداني الدائم. وهذا الانكشاف، هو في جوهره، سلاح المقاومة الأخطر: زعزعة الإحساس بالسيطرة.

1. الجبهة تُرغم الدولة على الانكفاء

الانسحاب الذي حدث تحت ضغط الاستهدافات الدقيقة التي نفّذها حزب الله، لم يكن مسألة مرتبطة فقط بالخوف من الصواريخ، بل نتيجة مباشرة لمنظومة من التهديدات التكتيكية المركّبة التي راكمها الحزب على طول خط الاشتباك:

- دقّة الاستهدافات لمواقع عسكرية وحدودية،
- القدرة على إصابة غرف التحكم والمراقبة،
- استعمال الطائرات المسيّرة الهجومية والاستطلاعية،
- كي الوعي بالتهديد الدائم بتسلل النخبة.

كل هذه العوامل خلقت ما يشبه "بيئة قهر عملياتية" دفعت القيادة الإسرائيلية إلى اتخاذ قرار استباقي بإخلاء المستوطنين، وهو قرار ذو دلالة عسكرية وأمنية ضخمة: فالدولة تعترف ضمنًا بعدم قدرتها على تأمين أطرافها، وتُجبر على إعادة تنظيم جغرافيتها السكانية انطلاقًا من تقديرات غير مسبوقة لمصادر التهديد.

2. الأمن الإسرائيلي كأيديولوجيا تنهار أمام تكتيك محسوب

منذ نشأتها، قدّمت إسرائيل لنفسها بوصفها دولة تحقّق الأمن لمواطنيها رغم محيطها المعادي. وقد كانت سياسة إنشاء المستوطنات، خصوصًا على الحدود، تمثل شكلًا من أشكال "السيادة الزاحفة" التي تُرسّخ حضور الدولة عبر السكان. لكن عندما تضطرّ هذه الدولة إلى تفريغ مستوطناتها من المدنيين بفعل تهديد من طرف فاعل غير دولتي (حزب الله)، فإن ذلك لا يمثل فقط نكسة ميدانية، بل انهيارًا في أحد أركان الرواية الصهيونية ذاتها.

لقد استطاعت جبهة الإسناد أن تفكّك ميدانيًا فكرة "حدود آمنة"، وأن تُثبت أن السيادة هي القدرة على البقاء في الأرض رغم الخطر، لا أن تحتلّ الأرض وتسيّجها، والانسحاب من المستوطنات هو إعلان عملي بأن هذه القدرة قد تآكلت.

3. الهزيمة النفسيّة:

إنّ التأثير النفسي والسياسي لهذا الانسحاب فاق كثيرًا النتائج المباشرة للعمليات العسكرية. فهذه الهزيمة، ورغم محدودية النيران المستخدمة لتحقيقها، كشفت عن الفاعلية الهائلة للتهديد

المقنن، أي ذاك الذي لا يفرط في استخدام القوة، بل يضبط وتيرتها بدقة تكتيكية، ويصوغ من خلالها "إرغامًا ناعمًا" للخصم على التراجع.

بهذا المعنى، أصبحت جبهة الإسناد نموذجًا لما يمكن أن نسميه الردع الزاحف؛ أي الردع الذي لا يهدف إلى تجميد الجبهة، بل إلى دفع العدو إلى الانكفاء خطوةً خطوة، وهذا النمط من الردع هو الشكل الأكثر تقدمًا في حروب الجيوش غير النظامية، إذ لا يتطلب انتصارًا حاسمًا في المعركة، بل فرض معادلات تغيير تدريجي في سلوك الخصم.

4. من إخلاء المستوطنات إلى تهديد البنية الديموغرافية

أحد أخطر أبعاد هذا الانسحاب من الشمال، هو أثره المتراكم على البنية السكانية. فالنزوح الجماعي يخلق سؤالًا داخليًا حادًا في المجتمع الإسرائيلي حول جدوى العيش في مناطق مهددة، وحول قدرة الدولة على تأمين مواطنيها. وهذا السؤال يتحوّل، مع مرور الوقت، إلى أداة من أدوات الضغط السياسي الداخلي، تُقيّد خيارات الحكومة، وتُربك خططها، وتُضعف جبهتها الداخلية.

وهكذا، فإن حزب الله لم يكتفِ في جبهة الإسناد باستنزاف العدو بالنار، بل استنزفه رمزيًا وديموغرافيًا ونفسيًا، من خلال معادلة واضحة: بإمكان المقاومة أن تُجبرك على إخلاء الأرض، لا لأنها استولت عليها، بل لأنها جعلت وجودك فيها عبئًا على أمنك القومي.

الفصل السابع: من جبهة إسناد إلى حرب شاملة: فلسفة الصّدمة والبقاء بعد حرب المباغتة والاغتيالات الكبرى

في الأدبيات العسكرية الكلاسيكية، تُفهم الحرب على أنّها صراع على كسر الإرادة، وأنّ رأس القيادة هو مفتاح هذا الكسر، أما في مدارس الحروب غير المتكافئة، كما أبدعها حزب الله، فإن القيادة ليست الرأس بل الجذر، والجذر متشعّب في الأرض والناس، والعقيدة، والسياق الاجتماعي، والنموذج العسكري نفسه، من هنا، فإن الضّربة القاصمة التي وجّهها العدو باغتيال السيّد حسن نصر الله (رض) وقيادات المقاومة وعنصر المباغتة في الجولة النّاريّة الأولى، لم تُحدث الانهيار الذي افترضه العدو، بل فجّرت طورًا جديدًا من الصراع: طور

الارتكاز بعد الصدمة، حيث يتبلور المفهوم العسكري الجديد لجبهة الصّمود بعدما كانت جبهة إسناد، بوصفها قلبًا بديلًا، وأفقًا استراتيجياً لإعادة التموضع الشامل للمقاومة.

1. إخفاق الاغتيال كتكتيك حسم:

لقد تعامل العدوّ مع فكرة الاغتيال كما لو أنّه يُفكّك جيشًا كلاسيكيًا يعتمد على مركز قيادة صارم، تُدار عبره جبهات القتال، غير أنّ حزب الله منذ ما بعد العام 2006، وتحديدًا بعد العام 2019، بعد الحرب الكونيّة في سوريا، طوّر ما يمكن تسميته بـ "هندسة البقاء اللامركزي"، قد تحدّث عنها كثيراً الحاج عبد القادر بعنوان القتال اللّامركزي والإدارة عند فقد الضّبط والسّيطرة في كلّ المستويات، أي تحويل القيادة إلى نمط شبكي ذي طابع زئبقي، حيث تنتقل الصّلاحيات الميدانية ضمن منظومات قيادة متكاملة، موزّعة جغرافيًا ووظيفيًا، وقادرة على إعادة توليد ذاتها عند الحاجة، دون الإعلان عن ذلك.

اغتيال القيادات، ورغم فداحته النفسية والرمزية، لم يُحدث خلخلة في النسيج القتالي، لأنّ القرارات الاستراتيجية لم تكن محصورة في قمة الهرم بل موزّعة وفق مبدأ "القيادة العقائدية " التي تؤمن بالتحوّل الذاتي، وتفويض القرار، وتجذّر الخطّ السياسي والعسكري في الوعي الجمعي للكوادر.

هنا، فشل العدو في إدراك أحد أعقد مفاهيم المقاومة: أنّ قتل الرأس لا يعني قطع الجسد، بل تنشيط الأعصاب الطرفية التي خُزّنت مسبقًا بخطط الردّ، وأنّ الجبهة تُدار وفق آلية تجعل من القائد "وظيفة عقلية قابلة للتوريث اللحظي"، لا شخصًا غير قابل للاستبدال.

2. الانهيار البري للعدو:

بعد الضّربات الجوية المركّزة، انتقل العدو إلى ما ظنّه المرحلة الحاسمة: الاجتياح البري، لكنه سرعان ما اصطدم بجدار صلب من الدفاعات المستترة والكمائن المتعددة المحاور والمبنية وفق ما يُسمّى بـ "هندسة الميدان الديناميكي"، المقاومة في الجنوب لم تكن تنشر خطوطًا دفاعية ساكنة، بل مصفوفات قتالية متحرّكة تتبدّل وفق سيناريوهات الصراع.

نقاط الاشتباك لم تكن محدّدة سلفًا، بل أُعيد إنتاجها بناءً على مسارات العدو، وأُغرق العدو في كمائن تنقّلية، ونيران متقاطعة، ونقاط ربط نارية بين الجغرافيا البشرية (البلدات) والطبيعية (التلال والوديان). كانت الحرب تُدار من خلايا لامركزيّة واعية، ومن وحدات ظلّ تربّت على القتال من دون تلقي الأوامر المباشرة.

إنّ فشل التقدّم البري رغم تفوّق العدو في العتاد وعدد الجنود والدعم الجوي والاستخباري، لم يكن فشلًا عملياتيًا فقط، بل فشلًا في فهم نظرية القتال اللامركزي القائم على الانكماش ثم الانفجار، وعلى تدوير النار، وتذويب الجبهة في البيئة الاجتماعية، لقد قاتل المقاومون كما يقاتل الماء، لا يملكون شكلًا ثابتًا، لكنهم يصنعون الطوفان حين يُهاجَمون.

3. فصل الساحات قسراً: استراتيجية العدوّ وأزمة المعنى العسكري للكُمون

منذ اللحظة الأولى لإطلاق جبهة الإسناد في 8 تشرين الأول/أكتوبر 2023، بدا أنّ حزب الله يعمل على تثبيت معادلة عسكرية استراتيجية تقوم على وحدة الساحات ووحدة الجبهات ووحدة المصير كما مرّ معنا، غير أنّ مجريات العام اللاحق، ولا سيما بعد الاغتيالات المركّزة، والهجوم الشامل على بنى القيادة، وضرب المنشآت في بعض البنى العسكريّة، وتلاها فشل التوغّل البري للعدو، وما تبع ذلك من خروقات بعد اتفاقية وقف إطلاق النّار، ما استدعى كُمون حزب الله المتعمّد (الصبر الإستراتيجي)، أعادت صياغة المشهد، وفرضت معادلة مختلفة: معادلة الساحات المفصولة قسرًا، حيث يُواصل العدوّ حربه في غزة بتوحّش، فيما يغيب الردّ العسكريّ من الجبهة الشمالية، أي توقّف جبهة الإسناد العسكريّة.

4. النجاح المرحلي للعدو في فصل الساحات: بين الفشل العملياتي والتقدّم الرمزي

لم يتمكّن العدوّ الصهيوني من فرض فصل الساحات عبر احتواء الجبهة الشمالية ومنعها من الانخراط في الحرب الشاملة، بل على العكس، تشير معطيات الميدان إلى أنّه خاض حربًا واسعة النطاق ضد حزب الله، استخدم فيها كل أدواته التقليدية والمستحدثة: من تفوّق جوّي شامل، إلى اغتيالات منظمة لقيادات الصفوف الأولى والثانية والثالثة، إلى محاولات توغّل بري في بيئات جنوبية مدروسة استخباريًا.

ورغم ذلك، تكبّد العدو خسائر ميدانية مباشرة، أبرزها:

1. فشله في كسر خطوط الدفاع الأمامية للمقاومة، وتحديدًا في المربعات النارية المعقدة التي نسجتها المقاومة بين البلدات والوديان جنوب الليطاني.
2. فشله في تحقيق السيطرة النارية على العمق العملياتي للمقاومة، رغم عمليات التدمير الشّبه شامل التي استهدفت البنى التحتية والمراكز الحيوية وبيئة الإسناد المدني.
3. تحوّله السريع إلى القنوات الدبلوماسية بعد أسابيع من النّزيف البري، واستدعائه لقرار 1701 كإطار لإنهاء العمليات، ما يعكس الانتقال من الهجوم إلى التّقييد السياسي، تحت وقع الفشل العملياتي.

لكن، ورغم هذه الإخفاقات الميدانية، فإن العدو استطاع تحقيق خرق رمزي واستراتيجي مهم يتمثّل في:

- فرض واقع انفصال الجبهات عمليًا، حيث لم تشهد غزة أي ارتدادات نارية من الجبهة الشمالية بعد توقف الردود، ما منح "إسرائيل" فرصة للتركيز على حرب الاستنزاف ضد غزة.

- تعميق عزلة المقاومة الإسلاميّة ميدانيًا، وإحراجها أمام بيئتها من خلال دفعها إلى حالة "الكمون الطويل" الذي لم يعُد يُفهم على أنه مجرد حسابات زمن ومكان، بل بدأ يأخذ شكل صمت استراتيجي مطبّق، سأتكلّم عن فلسفة الرّد المؤجّل قبل الخاتمة.
- إعادة بناء المبادرة السياسية من موقع الفشل العسكري، وذلك عبر تفعيل الضغط الدولي على لبنان لنزع سلاح حزب الله، وربط ملف الإعمار والتعويضات في الجنوب بشروط ما بعد الحرب.

بمعنى آخر، العدو خسر عسكريًا لكنه راكم نقاطًا استراتيجية في ميزان ردع المقاومة، عبر إحداث فجوة بين جبهة لبنان وجبهة غزة، وتحويل الحرب إلى ملف سياسي – إقليمي طويل النفس.

ولذلك، فإن التحدّي الأكبر أمام المقاومة في هذه المرحلة لا يتمثل فقط في الرد العسكري الانتقامي على الاغتيالات والخروقات أو الردع الناري، بل في استعادة المبادرة الاستراتيجية وكسر معادلة فصل الساحات الرمزية، التي إن تُركت دون معالجة، قد تتحوّل إلى بنية دائمة تضرب مفهوم "وحدة الميدان" من جذوره.

فهذا الوضع يخلق نوعًا من المأزق الاستراتيجي: فلو استمر حزب الله في الكُمون، قد تنجح "إسرائيل" في فرض معادلة فصل الساحات كواقع إقليمي دائم، ما سيؤدي إلى تراجع القيمة الردعية لجبهة الإسناد، وتحويلها من جبهة ارتكاز إلى مجرد "ساحة تهديد بلا تنفيذ"، أمّا إذا خرج عن هذا الكمون دون رؤية شاملة، فإنه قد يقع في فخ الاستدراج والاحتواء.

إنّ هذا التناقض بين مصلحة الكُمون ومخاطر تفريغ الجبهة من معناها القتالي يطرح أسئلة مركزية في العقيدة العسكرية للمقاومة:

- هل يكفي التهديد الصامت لردع العدو؟
- متى يتحوّل الصمت من تكتيك ذكي إلى علامة شلل؟
- وهل يمكن لحرب تمّ فيها اغتيال القادة، وشُلّت الجبهة، واستُنزفت غزة، أن تبقى بلا ردّ استراتيجي يَمنع العدو من استثمار "الفراغ القتالي" كربح دائم؟

5. البيئة الحاضنة: المجتمع مؤسسة قتالية طويلة الأمد

ربّما ظنّ العدوّ أنّ اغتيال القيادات سيُضعف الحاضنة الشعبية، أو سيخلق فراغًا اجتماعيًا وسياسيًا يمكن الضغط من خلاله على المقاومة، لكن ما أظهرته التجربة هو أنّ البيئة في لبنان لا تُعامِل المقاومة كضيف سياسي، بل ككائن عضوي منها.

رفض المجتمع الانجرار إلى الندب والعزلة، وتمسّك بالسلاح كشرط وجودي، رغم التعطيل الأميركي لملف الإعمار، والضغوط الداخلية، وتضييق الخناق الاقتصادي. لقد أُنتجت "هندسة

اجتماعية للمقاومة" قائمة على توزيع الألم، وتقاسم الصدمة، وتحويل الفاجعة إلى فرصة نهوض.

المجتمع هنا هو عنصر في معادلة الردع، يُعطّل الاختراق، ويمنع التسرّب، ويعيد إنتاج شرعية القتال كحقّ تاريخي لا تفاوض عليه، قد يكون العدوّ نجح في إحداث نكسة رمزية ومادية غير مسبوقة، لكنه فشل في إدخال المقاومة إلى زمن التلاشي. لقد أراد أن يُنهيها فأطلق جولة جديدة من بقائها. أراد أن يُسكتها، فزرع ألف فم. أراد أن يعزلها، فربطت نفسها بغزّة، واليمن، والعراق، وايران، جبهة الإسناد تحوّلت إلى جبهة ارتكاز استراتيجية – عقائدية – نفسية، تقاتل باسم الذاكرة، وتؤسّس لردع جديد اسمه: "اغتيالنا لا يُنهي معركتنا... بل يبدأها".

الفصل الثّامن: الرّد المؤجّل وإدارة الاشتباك في مرحلة ما بعد وقف الحرب الشاملة

بعد أن انخرط العدو في حرب شاملة استهدفت بدقة عالية النّسيج القيادي للمقاومة، وتمكن من اغتيال قادة الصف الأول والثاني والثالث، ومن تنفيذ دمار واسع في البنية التحتية للمقاومة، فشل في تحقيق أهدافه الاستراتيجية عبر التوغل البري والسيطرة الميدانية. هذا الفشل دفعه في نهاية المطاف إلى القبول بوقف إطلاق النار تحت مظلة القرار 1701، في محاولة لاحتواء الخسائر وإعادة ترتيب الأوراق السياسية والعسكرية.

غير أن هذا الوقف لم يكن نهاية للحرب بقدر ما كان نقطة تحوّل في طبيعة الاشتباك، إذ استمر العدو في خروقات متواصلة على مختلف الجبهات، فبآلاف الخروقات الجوية والبرية، والاغتيالات المستمرة لقادة ومقاتلين، يحاول العدو فرض حالة ضغط دائمة على المقاومة وبيئتها، مستخدمًا سياسة الاستنزاف الممنهج لتحقيق أهدافه دون الدخول في مواجهة مباشرة مفتوحة قد تكلفه الكثير.

في هذا السياق، يتضح أن المقاومة اتخذت موقف الرد المؤجل كعقيدة عسكرية استراتيجية، حيث لم تعتمد على الرد الفوري الذي قد يرضي الغريزة القتالية أو الرأي العام، بل اختارت مسار الانضباط والتروي، مدركة أنّ الرّد العاجل في ظلّ ظروف معقدة لا يضمن تحقيق نصر استراتيجي، بل قد يفضي إلى استنزاف إضافي أو فتح جبهات لا يمكن السّيطرة عليها.

الصّمت المقاوم في هذه المرحلة لم يكن تعبيراً عن ضعف، بل هو تكتيك متقدم لإعادة بناء القوة، والحفاظ على القدرة القتالية في الوقت الذي يستمر فيه العدو في ممارسة حرب غير متكافئة عبر الخروقات الصغيرة التي تبقي نيران الاشتباك مشتعلة دون دفع المقاومة إلى الرّد

الشامل، هذه السّياسة تشير إلى فهم عميق للطّبيعة المتغيّرة للحرب في عصر الصّراعات غير المتوازنة، حيث تصبح إدارة الوقت والمجال والرّدود جزءاً من أدوات الحرب ذاتها.

إدارة الرّد المؤجل تعكس القدرة على احتواء الضّغوط السياسية الداخلية والخارجية، وخاصة الضّغط الأميركي الّذي يدفع نحو نزع سلاح المقاومة، واستغلال ملف الإعمار والتعويضات كأداة ضغط على البيئة اللبنانية. المقاومة بهذا الشكل تؤكد على أنّ الرد لا يُقاس فقط بحجم الضّربة العسكرية، بل بمدى قدرتها على الحفاظ على وحدة البيئة ودعمها، وتأجيل الرّد حتى يتوفر الوقت والمكان المناسبان اللذان يحققان الأثر الاستراتيجي المطلوب.

من الناحية العسكرية، هذا الأسلوب في الرّد المؤجل يُعطي المقاومة هامشًا للمناورة والتخطيط لعمليات معقدة تتطلب جهوزية عالية وذكاء استخباري متميز، بدلًا من الرّدود الفوريّة الّتي قد تكون عشوائيّة أو محدودة التأثير، إنّ هذه العقيدة تعتمد على إعادة صياغة معادلات الرّدع، حيث يتحوّل الصّمت إلى تهديد مستمرّ يبقي العدو في حالة ترقب دائمة وقلق استراتيجي.

وفي ضوء استمرار العدو في الخروقات رغم وقف إطلاق النار، فإن استراتيجية الرّد المؤجل تحمل أبعادًا متعددة، فهي تحمي المقاومة من الانزلاق إلى ردود فعل قد تكون مكلفة، وفي الوقت نفسه تحتفظ بحق الرد الشامل الذي يعيد تشكيل موازين القوى على الأرض، ويجعل الرد حين يقع، ذا وقع استراتيجي مزلزل يتجاوز مجرد استعادة الردع إلى فرض قواعد اشتباك جديدة تراعي التوازنات السياسية والعسكرية.

باختصار، الرد المؤجل بعد وقف الحرب الشاملة هو ليس فقط خياراً تكتيكياً بل هو استراتيجية شاملة لإدارة الصراع مع العدو ضمن مرحلة جديدة من الاشتباك المتواصل والمتعدد الأوجه. هذه الاستراتيجية تعكس عمقًا في فهم طبيعة الصراع، وتكتيكات مقاومة ذكية قادرة على التعامل مع ضغط العدو وتهديداته دون التسرع، مع الحفاظ على الجاهزية للرد الحاسم في اللحظة التي يختارها القرار المقاوم.

خاتمة الدراسة:

لقد كشفت تجربة "جبهة الإسناد" خلال معركة طوفان الأقصى وما تلاها، عن تحوّل نوعي في فلسفة الحرب لدى المقاومة الإسلامية، تحوّلٌ عسكريّ مرنٌ ومتطوّر جدًّا، فلم يعد يُقاس فقط بمدى كثافة النيران أو حجم الاشتباك، بل بقدرة الجبهة على تمثيل بنية استراتيجية طويلة الأمد تتجاوز الظّرف القتالي المباشر.

أصبحت الجبهة الشّماليّة حيّزًا دائمًا في عقيدة الرّدع المقاومة، وهو الآن حاضرٌ في لحظات الصّمت بعد وقف إطلاق النار، حيث تحوّل الصمت من حالة انتظار إلى أداة استراتيجية تحكمها حسابات متأنية لا تنفذ تحت ضغط الزمن المفروض من العدوّ.

لقد ظنّ العدوّ أنّ اغتيال القيادة سيفكك البناء، فوجد نفسه أمام معمار مرن، متعدد الطوابق، يعيش ويُقاتل حتى لو انهار السقف، ظنّ أن تفكيك الجبهة سيُعيد المقاومة إلى الداخل، فوجد أن الدّاخل تحوّل إلى عمق اجتماعي صلب، وأنّ الجنوب لم يعد مجرّد بيئة حاضنة، بل مكونًا عضويًا في صناعة الحرب والبقاء، وها هو يجد نفسه اليوم أمام حالة معقّدة :عدوّ لا يردّ، لكنّه لا يختفي... لا يُهاجم، لكنّه لا يتراجع... لا يُظهر كل أوراقه، لكنه لا يسلّم بأيّ معادلة.

وأنا أرى أنّ مستقبل المواجهة لم يعد مرتبطًا بسؤال "متى تُفتح الجبهة؟"، بل بسؤال أعمق: كيف تحوّلت الجبهة إلى فلسفة عسكريّة بحدّ ذاتها، قائمة على الكُمون (الصّبر الإستراتيجي)، والتهديد، وإدارة التوازن دون الانزلاق إلى الحرب المفتوحة؟

إنّ أهمّ ما فعلته المقاومة بعد خروقات وقف إطلاق النّار، هو عدم الردّ الفوري، بل الصّمود والانضباط في الصّمت الاستراتيجي الذي لا يُفسّر كضعف أو شلل، بل كاستثمار ذكي في الزّمن، يجعل من كل لحظة هدوء فرصة لإعادة بناء القوة، وتعبئة الجبهة الداخلية، وتجديد مصادر الرّدع.

بهذا المعنى، فإن جبهة الإسناد هي الّتي أسّست لما وصلنا له اليوم من إلزام العدوّ بالاعتراف بالهزيمة ولو ضمنيًّا، فتراكم الخسارات التّكتيكيّة حال دون تحقيق أسمى أهدافه، اقتلاع حزب الله، وهنا أقول بأنّ فلسفة جبهة الإسناد العسكريّة حاكت الواقع الّذي نحن فيه وموقفنا أمام أحرار هذا العالم بأداء التّكليف وتحقيق تفوّق نوعي من قبل منظّمة تحترف عمل العصابات في مقابل دولة لها نفوذها العالمي والخليجي، أصبحت هكذا نوع من الجبهات متجذّرة في عقيدة المقاومة الحديثة، وفي هذه المعركة، لا يزال حزب الله يُمسك بتعريف الزّمان، والميدان، والمصير.